

الحرية في الشعر العربي ورحلة البحث عن الذات
(نماذج ومختارات)

Freedom in Arabic Poetry; the Journey to Self-searching
(Selected Examples)

رجب إبراهيم أحمد عوض²

Ragab Ibrahim Ragab

السيد محمد سالم¹

Elsayed Mohamed Salem

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث قضية شائكة لا طالما شغلت حيزاً من الجدل والنقاش، فالبحث عن الذات في مجتمعات ديكتاتورية وظروف قهرية، وتحكمات اجتماعية من العسير بمكان، والشعراء أكثر من ينشدون الحرية للانطلاق والانعتاق؛ ليصيحوا بشعرهم في كل ناد، ويسيحوا به في كل واد؛ ولكن هيهات! ومن هنا آل البحث على نفسه عرض نماذج لشعراء بحثوا عن أريج الحرية وعقب الانطلاق؛ ليصدحوا بكلماتهم في الآفاق. وتكمن مشكلة هذه الوريقات في كيفية خروجهم عن المألوف وكسر حواجز الخوف، والتحرر من حياة القيد ليكونوا على قيد الحياة، ويغردوا خارج السرب؛ مع اختلاف عصورهم وأزمنتهم، وكان من أهدافه الوقوف على أساليبهم وطرقهم - قدر استطاعتهم وحسب بضاعتهم - للحصول على حريتهم والاعتراف بهم. وتتجلى أهمية هذا البحث بدوره في أنه يظهر لنا دور الشعر وتأثيره كسلاح لاسترداد الحقوق وإثبات الذات. واستعان البحث بالمنهج الاستقرائي والتحليلي الوصفي التكاملي في توصيف هذه الظاهرة، وتقديم هذه النماذج، ومن أهم نتائجه أن الحصول على الحريات أمر عسير بحاجة إلى توضيحات تصل إلى المفارقة، وإزهاق الأرواح، وإفناء الأعمار، وكثير من الشعراء ذاقوا مرارة هذه التوضيحات ودفع ضريبة ذلك. وجاء البحث في مقدمة وثلاثة مباحث ثم خاتمة مشفوعة بمصادر البحث ومراجعته.

كلمات مفتاحية: الحرية - الذات - إثبات - الشعر - رحلة

¹ أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية بكلية اللغات والاتصال جامعة السلطان زين العابدين

sayedsalim@uinsza.edu.my

² أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية بكلية اللغة العربية بجامعة السلطان معظم شاه الإسلامية

mailto:dr.ragabibrahim@gmail.com



Abstract

This paper approaches a sensitive issue that has always been a subject of debate and discussion. In a dictatorial society and under oppressive circumstances self-searching seems quite difficult. Poets are the most diligent seekers of freedom in their aspiration to feel free and unhampered to roam around and broadcast their poetry everywhere. But how far this is! This paper thus attempts to present examples of poets who searched for the air of freedom and liberty to circulate their words here and there. The problem this paper handles is how these poets could break with the dominant traditions, overcome the barriers of fear, and free themselves from the life of restraint to lead their own life and sing a different tune. This paper aims to discover their ways and approaches, according to their available means, to attain freedom and get recognition. The importance of this paper thus lies in its attempt to exhibit the role and impact of poetry as a weapon to regain rights and to prove oneself. The research adopted an integrative approach to describe this phenomenon and present such examples. It finally concludes that attaining freedom is risky undertaking and usually requires sacrifices including parting with beloved ones and even losing one's life. Many poets tasted the bitterness of these sacrifices and payed the price of freedom. The paper consists of an introduction, three chapters, and a conclusion and ends with a bibliography.

Key words: Freedom, self, proving, poetry, journey.

المقدمة

إن الشعر يسمح للشاعر أن يصنع لنفسه ما لا يسمح به لغيره، وهما روحان في جسد واحد، والشعر يصور حياة الإنسان في أخفى خفاياها، وأدق تصوراتها التي يحاول الشاعر، جاهداً، إيصالها لمجتمعه، وهو في ذلك يتقلب بين أمرين: نجاحه في مهمته وتبصرته لمجتمعه، أو إخفاقه وفشله فينتهي إلى التكذيب به أو الزج به في السجن، لكن هل يمكن لغياب السجون والأغلال أن تُسكّت صوت الشاعر الذي هو صوت نفسه؟! أو هل يمكن لشاعر أن يتحمل ظلم عشيرته، وتَنكّر قبيلته، وكفر أهله بمبادئه؟!

إن للشاعر الحق في أن يبحث عن ذاته، يفتش عنها ليتلاقى هو وهي لقاءً حقيقياً، قد يُكلفه ترك الراحة، وإثارة التعب والحرمات، وإلا كيف كان لنا أن نُصدّق هذا الشاعر الملك الضليل، الذي رفضت نفسه جوار أبيه، وبانت منه؛ لأن نفسه ترى شيئاً آخر هو صدى لها.. الحرية البعيدة عن القصور والدور والغلمان وحراس القصور، لم تجدها في كل هذا؛ بل على رمال الصحراء، وبين أودية الجبال!

إنه الإيمان بالكلمة، والأديب، والوطن، وبالحرية، وبكرامة الإنسان الذي يجعل الشاعر يستقبل ذلك المصير، لكنه يعطيه القدرة على الشموخ، والوقوف أمام جلدات سجنائه، وتعنّت قبيلته، وعصبيات عشيرته. وكم شهدت بهذا أجساد شعراء كانت كلماتهم نارا عليهم يصطلون بها ليل نهار، وكم من زنازين طليت جدرانها بكلمات كان مدادها دماء هؤلاء الشعراء. تلك القصائد التي ولدت في ظروف عسرة، وارتبطت بتجربة شديدة الخصوصية هي تجربة القمع والاضطهاد، والحبس والتقييد، تلك القصائد الناجية من سياط التعذيب، ومُفصلات السجون، وأعين الرصداء.. هي موضوع هذا البحث الموسوم "الحرية في الشعر العربي.. رحلة البحث عن الذات". هذا، وسوف نختار نماذج مختلفة لعصور متفرقة، وشعراء متغايرين. ولتشعب الموضوع بين الفكري والسياسي، والنفسي، والفني، فقد نجدنا نحتاج إلى مناهج متشابكة في محاولة الإحاطة بأركانه، منها التاريخي، والوصفي، والنفسي، والاستقرائي، والتحليلي، كل في مكانه. وقد قسم البحث إلى ثلاثة مباحث:

الأول: المجتمع الجاهلي بين الرغبة في الحرية وغياب العدالة الإنسانية.

الثاني: المتنبي.. الشاعر الطموح، والشارد الجموح، والصخرة النطوح.

الثالث: أمل دنقل.. والقضية الكبرى.

وأخيراً.. ينتهي البحث بخاتمة، تبرز أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج، متلوة بأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

المجتمع الجاهلي بين الرغبة في الحرية وغياب العدالة الإنسانية

إذا استطلعنا صفحات التاريخ الأدبي لنرى غياب العدالة الإنسانية، وقسوة الواقع، وقمع السلطة الحاكمة، وأعراف القبيلة الجائرة وعلاقة هذا كله بالشاعر، وهل يستجيب لهذا أو يرفضه.. وحقيقة فالشعراء والأدباء إزاء هذه القضية ليسوا على شاكلة واحدة؛ فمنهم من يقابل هذا بالرضا ويتآلف معه، ومنهم من يقابله باليأس وعدم الجدوى، وثالثهم يرفض هذا ويقف ضده بحثاً عن ذاته، ونفسه، حتى لو كلفه ذلك نفيه، أو قتله.

طرفة بن العبد.. اللذة في الموت

والصفحات الأولى من التاريخ الأدبي تعرض لنا مشهد مقتل الشاعر طرفة بن العبد وهو والٍ على البحرين للملك عمرو بن هند، حين خرج عليه مع عمرو بن أمامة، فقتل ابن أمامة، بينما ظل طرفة يهجو الملك ابن هند كاشفاً عن فساد وفساد حكمه هو وشريكه قابوس بن هند فيقول: (1)

فليت لنا مكان الملك عمرو ** رغوئاً حول قُبَّتِنَا نَحْوُرُ
لَعَمْرُكَ إِنَّ قَابُوسَ بْنَ هِنْدٍ ** لَيَخْلِطُ مُلْكُهُ نَوْكَ كَثِيرُ
قَسَمْتُ الدَّهْرَ فِي زَمَنِ رَحِيٍّ ** كَذَاكَ الْحُكْمُ يَقْصِدُ أَوْ يَجُورُ
لَنَا يَوْمٌ وَلِلْكَرْوَانِ يَوْمٌ ** تَطِيرُ الْبَائِسَاتُ وَلَا نَطِيرُ
فَأَمَّا يَوْمُهُنَّ فَيَوْمٌ نَحْسٍ ** تُطَارِدُهُنَّ بِالْحَدَبِ الصَّقُورُ
وَأَمَّا يَوْمُنَا فَنَظْلُ رَكْبَاءَ ** وَقُوفاً مَا نَحُلُّ وَمَا نَسِيرُ

لقد دفع حياته ثمناً للذة أحس بها في نفسه، وما يضيره ذاك، وقد وجدها حين فقدتها غيره وهم أحياء، فقد وجدها على الرغم من الصورة البشعة التي لقي عليها مصرعه حيث أمر النعمان بقطع يديه ورجليه ودفنه حياً قبل أن يتجاوز العشرين من عمره.

القهر المجتمعي، وموت العدالة الإنسانية

حين نقف أمام المعاجم العربية لتحرير معنى "القهر" فإنها تشير إلى الغلبة والعلو، والتذليل، والقهر بالسلطة، والقدرة. وهي معان تلفت الانتباه، وتسترعي الذهن، إذ هي صورة من نزاع بين طرفين أو أكثر، يحاول كل طرف الانتصار لنفسه بقهره عدوه، فالمهزوم مقهور، ولعل التركيبة الاجتماعية لكثير من قبائل وبلاد العرب، وكذلك ما استقر في خلدهم من مراعاة اللون والجنس والنسب كانت عاملاً رئيساً في شدة هذا القهر.

¹ - ديوان طرفة بن العبد من الوافر، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، (بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ، 2003م) ص 45، 46.

وجريا على أحكام الطبيعة فلا يوجد مجتمع متجانس تجانسا تاما، فالتنوع والتعدد أمر طبعي بدهي، لذلك تتفاوت طبقاته، وتباين مستوياته، فطبقة في الأعلى، والأخرى في الأسفل، وطبقة ثالثة بينهما.

إن النظام الحاكم في المجتمع الجاهلي هو القبيلة التي يجب الانتماء إليها إذ هي الوحدة السياسية والاجتماعية، بل الدولة المصغرة التي انضوى تحت رايتها كل أفرادها.⁽¹⁾ فالمصلحة المشتركة التي يعود بها هذا النظام على القوم، تُسهِمُ في تقويته، وتمتين دعائمه. ودستور هذه القبيلة هو العصبية التي تعني النعرة على ذوي القربى، وأهل الأرحام، أن يُضاموا، أو يُظلموا، ثم النسب الذي هو قانون وأحكامه ثابتة.

ولا أرى أن عامل النسب كان كافيا لاستمرار القبيلة، وثباتها، فقد دبت معارك بين ذوي الأرحام، ودارت رحاها لسنوات عدة كحرب البسوس، وداحس والغبراء.

هو مجتمع لا يرضى إلا بصفاء النسب، والأصل، وذكاء المختد ليكون مقياسا يقاس به الفرد. وهذا المقياس لا يسمح بدخول الغبراء إلا من خلال نظام لا يخلُ بالقبيلة ونظامها، فيكون الرق والعبودية هو السبيل إلى ذلك، حيث ينصهر فيها الغريب ليصير واحدا من القبيلة، لكن في الوضع الذي تحدده له هي لا هو. فهو غريب وأسود، وهذان عاملان يتنازعان صاحبهما وكافيان لتحويل حياته إلى جحيم مستعر.

لقد اجتمعت في القبائل العربية نعرات كانت كفيلة بهدم المجتمع من داخله قبل خارجه، إذ يقفون أمام اللون الأسود موقفا مخجلا، مما يعد جريمة في حق الإنسانية، فالمقرب الأبيض وإن كان خاملا، والأبعد الأسود وإن كان فارسا.

ولعلمهم كانوا يتعشقون اللون الأبيض، حتى لقد كانوا يُكنُّون عن كرم الأصل، وعلو الهمة، وذكاء المختد، وشرف الأرومة بالبياض، وأظن أن بعض العرب -إلى الآن- مازالت تتلبسهم بقايا تلك الجبلية العربية الموروثة فيأبون تزويج بناتهم من ذوي البشرة السوداء، لا لشيء إلا لأنه أسود.

إنهم "أولئك السود الذين سرى إليهم السود من أمهاتهم الإماء، فلم يعترف بهم آباؤهم العرب، ولم ينسبواهم إليهم، لأن دماءهم ليست عربية خالصة، وإن خالطتها دماء أجنبية سوداء، لا تصل في درجة نقائها إلى درجة الدم العربي".⁽²⁾

إذن هو واقع مؤلم، وعلاقة اجتماعية معقدة، يكون فيها الإنسان الغريب الأسود ميتا، وإن أخرج نَفْسَهُ وأكل وشرب.

¹ - مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، حسين عطوان، دار المعارف، مصر، 1970م. ص 30.

² - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف. دار المعارف، مصر، 1959م. ص 56.

عنتر بن شداد.. لا تسقي ماء الحياة بذلة

لقد كان عنتر ضحية هذا القانون الإنساني، فجرمه أنه أسود كأمه، أما أبوه فهو عربي أصيل.. تلك هي المعادلة الصعبة التي حاول عنتر أن يفك لغزها.. ولاقى ما لاقى لأجل ذلك. فالأمة في قانونهم نوع آخر من الخلق، لا ترقى لهم، فهي سوداء.. اجتمع لها ما لم يجتمع لغيرها من دواعي الحقارة والدناءة في نظرهم، لتزداد معها مأساة ولدها في قوم شعارهم: "إنا قوم نبغض أن تلد فينا الإماء"⁽¹⁾. فكيف إذا كانت سوداء؟! لا يستطيع عنتر الفكك من هذا المصير الذي رآه ماثلاً أمام عينيه، وهو لا يزال طفلاً، وعُدَّة عنتر في مواجهة ذاك المصير نسب مريب، ولون أسود، وعبودية مذلة، وحرية دونها أسوار قوانين القبيلة وعاداتها.. إنه باختصار الذل، وإن لبس ثوباً آخر غير هذا. إن المعادلة التي تكتنف موقف عنتر لها بعدان شديدان.. أولهما: إنكار النسب، وجحود البنوة، وثانيهما: أم أمة تقبع في درك الطبقيّة المقيتة المميّنة، فهي ليست حرة، ولا حتى سبية، بل هي أمة! فأبي ظلال سوداء ألقّت بظلامها على عنتر لتزيد حياته سواداً فوق سواد لونه ليمتلاً قلبه حنقا وغيظاً على مجتمع فرض عليه إصره، وكَبَلَهُ بأغلال العبودية، وإثم اللون.

لقد حُرّم عنتر كرم الخوّلة كما حُرّم كرم العمومة، فالخوّلة هي نصفه المظلم المشين، أما العمومة فهي النصف الآخر من جهة أبيه، فقد ظل ضبابياً غير رائق، محاطاً بالشك والريبة وإن اعترف به أبوه، فقد ظلت أمه هي نقطة ضعفه، والثغرة التي حاول طيلة عمره سدّها. واجه عنتر الجميع، وتحداهم، وهدم نظرتهم الدنية لأمه السوداء، ففخر بها، فليس عليها جرم، ولا ذنب في سواد لونها.. إذ ليس من الناس من يستطيع أن يختار لونه أو نسبه، فكسر عنتر هذه القاعدة المهينة الصلبة على صخرة فخره بأمه، فقال:

وَأَنَا ابْنُ سَوْدَاءِ الْجَبِينِ كَأَنَّهَا ** صَبُعٌ تَرَعَرَعَ فِي رُسُومِ الْمَنْزِلِ
السَّاقِ مِنْهَا مِثْلُ سَاقِ نَعَامَةٍ ** وَالشَّعْرُ مِنْهَا مِثْلُ حَبِّ الْقُلْفُلِ
وَالثَّغْرُ مِنْ تَحْتِ اللَّثَامِ كَأَنَّهُ ** بَرَقَ تَلَالُؤُا فِي الظَّلَامِ الْمَسْدَلِ⁽²⁾

في هذه الأبيات يحاول عنتر أن يضع معياره الخاص للجمال، هذا المعيار الذي لم يرقم على أسس المفاضلة بالوراثة ولا العصبية للجنس أو لون، إنه يرى الجمال مجرداً من كل هذا، تلك هي فلسفته، مؤداها: إن الصفات الوراثية والشكلية للإنسان ليست كافية لتكون ميزان حكم، أو معيار قول بجمال المرء، أو قبحه، هو يرى أن أمه لا

¹ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني 238/8، شرح سمير جابر ورفيقه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1992م.

² - ديوان عنتر بن شداد، طبعة رابعة برخصة مجلس معارف ولاية بيروت الجليلية، بنفقة خليل الخوري، صاحب المكتبة الجامعة. ص70.

ينقصها الجمال غير أن عيون القوم اعتادت استساعة نوع من الجمال محدد. أما هو فيتغزل بمزايا الجنس الأسود فهو يراه مدعاة للشرف. إن الأبيات تغص بالمتناقضات فضمور الساق، وجعادة الشعر، أسنانها بيضاء وإن كانت في وجه أسود، تخرج في حر الشمس، سافرة عن وجهها.. كل هذا في عرف القوم ليس مدعاة للتغزل، بل نقيضه هو المحمود.. ولا شك أن هذه الأبيات هي صرخات مكتومة رافضة لرأي جماعة لا تزن الناس بميزان الإنسانية، إنها صرخات مرارة وسخط على ذلك العالم الذي جعل بينه وبين الإنسانية بونا شاسعا. لقد أعلنها منذ البداية.. لن يستدلي أحد:

لا تسقني ماء الحياة بذلة ** بل فاسقني بالعز كأس الخنظل⁽¹⁾

عنتره ووسائل البحث عن الذات

سلك عنتره عدة سبل للبحث عن ذاته:

■ الإدراك الواعي لحقيقة موقفه:

كان عنتره واعيا بحقيقة عبوديته، مدركا لنظرة الناس إليه، لكنه عمل على تغييرها، بل إلى هدمها، واجتثاثها، فقال عن نفسه مقدما صورة متغايرة عما في أذهان المجتمع، دون أن ينفي عن نفسه صفة العبودية، إنه العبد، ولكن ليس كأبي عبد:

أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي حُزِرَتْ عَنْهُ ** يُبْلِقِي فِي الْكَرِيمَةِ أَلْفَ حُرٍّ
خُلِقْتُ مِنَ الْحَدِيدِ أَشَدُّ قَلْبًا ** فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْ بَيْضٍ وَسُمْرٍ
وَأَبْطِشُ بِالْكَمِيِّ وَلَا أُبْـالِي ** وَأَعْلُو لِّلْسِمَاكِ بِكُلِّ فَخْرٍ
وَيَبْـُـصُرُنِي الشُّجَاعُ يَقْرُؤُ مِنِّي ** وَيَرْعَشُ ظَهْرُهُ مِنِّي وَيَسْرِي⁽²⁾

ويكثر هذا في شعره، يُصَدِّر "الأنا" ليغير الواقع والمفاهيم:

أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي حُزِرَتْ عَنْهُ ** وَقَدْ عَايَنْتَنِي فَدَعِ السَّمَاعَا
مَلَأْتُ الْأَرْضَ خَوْفًا مِنْ حُسَامِي ** وَخَصَمِي لَمْ يَجِدْ فِيهَا إِتْسَاعَا
إِذَا الْأَبْطَالُ فَرَّتْ خَوْفَ بَأْسِي ** تَرَى الْأَقْطَارَ بَاعًا أَوْ ذِرَاعَا⁽³⁾

إن المواجهة والاعتراف الصريح والمباشر من عنتره بعبوديته، وفي الوقت ذاته تفرد هذه العبودية، وتميزها بالفروسية والشجاعة، التي، حسب رأيه، تحجب هوان العبودية وذلها، كانت هي الوسيلة الأولى ليجد عنتره ذاته التي يبحث عنها.

■ اللون الأسود ومحاولة الانسجام مع الذات

كان سواد اللون هو التبعة الثقيلة التي أثقلت عاتق العبيد، وأوهنت ظهورهم، لكن عنتره حاول الانسجام، والتوافق مع هذا الأمر، الذي لا يستطيع أن ينفك عنه، أو منه، فحاول أن يحيل هذا اللون البغيض إلى قلبه سجية

1 - ديوان عنتره ص 70.

2 - السابق ص 44.

3 - ديوان عنتره ص 52.

يحسن الفخر بها، فالسواد لون المسك الذي يحرص كثير من البيض، لا سيما السادة منهم، رشه على أجسادهم، فيقول:

لَئِنْ أَكَّ أَسْوَدًا فَلَمْسُكَ لَوْنِي ** وَمَا لِسَوَادٍ جِلْدِي مِنْ دَوَاءٍ
وَلَكِنْ تَبْعُدُ الْفَحْشَاءُ عَنِّي ** كَبُعْدِ الْأَرْضِ عَنِ جَوِّ السَّمَاءِ⁽¹⁾

ويقول:

سَوَادِي بَيَاضٌ حِينَ تَبْدُو شَمَائِلِي ** وَفَعَلِي عَلَى الْأَنْسَابِ يَزْهَوُ وَيَفْخَرُ⁽²⁾

يعلن عنتره ويؤكد اختلافه وتميزه، فسواده ليس كسواد غيره، بل هو مختلف تماما عن سواه، وذلك نابع من اختلافه هو، وامتيازه على غيره من السودان، وغيره من البيض أيضا.

■ الاعتداد بنسب أبيه، وإن تضاعل نسب أمه

فالمعلوم أن كفتي نسبه غير متوازنتين، فالأولى تعلقو بالثانية، الأولى أب ذو حسب ونسب، والثانية أم ضئيلة النسب قليلة الشأن. لكنه حاول أن يخلط بينهما فيستر أحدهما الآخر. يقول:

إِنِّي إِمْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبَسٍ مَنْصِبًا ** شَطْرِي وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمَنْصُلِ
وَإِذَا الْكَتِيبَةُ أَحْجَمَتْ وَتَلَاخَظَتْ ** أَلْفَيْتُ خَيْرًا مِنْ مُعَمِّ مُحُولٍ
وَالْحَيْلُ تَعْلَمُ وَالْفَوَارِسُ أَتْنِي ** فَرَقْتُ جَمْعَهُمْ بِطَعْنَةٍ فَيَصَلُ⁽³⁾

هنا يفاخر عنتره بنسب أبيه، وهو كافٍ لمنحه الشرف، والسؤدد أمام قومه، كما أنه لا يتحرج من نسب أمه، وإن كان ضئيلا، فاختلاط نسبه هذا منحه قوة وبسالة، وأنه بهذا النسب لم يتساو مع قومه، بل فاقهم، وزادهم قوة وشجاعة. لقد اختار عنتره أن يكون انتسابه إلى الفروسية بعيدا عن معايير الانتساب التي تعارف عليها قومه، فيقول:

جَوَادِي نِسْبَتِي وَأَبِي وَأُمِّي ** حُسَامِي وَالسِّنَانُ إِذَا انْتَسَبْنَا⁽⁴⁾

¹ - ديوان عنتره، ص 10.

² - السابق ص 40.

³ - السابق ص 68.

⁴ - السابق ص 83.

حاول عنتره، رغم تميزه عن غيره من السود، أن يعتمد إلى بناء ذلك العالم الخاص به، عالم الجمادات، سيفه، وفرسه، ورحمه، مستعيضا بها عن أولئك الذين لم يقتنعوا بحقه في امتلاك الحرية الإنسانية الكاملة. وجدير بالذكر أن فروسية عنتره امتازت بحسن التدبير، فلم تكن عبثا، أو تهورا، إذ صقلته التجارب، وأكسبته الخبرة والممارسة الحربية مهارة، وشهرة، وعندما سُئِلَ لم شاع خبر أنه أشجع الشجعان، قال: "كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما، وأحجم إذا رأيت الإقدام عزما، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما، ولا أدخل إلا موضعا أرى لي منه مخرجا، وكنت اعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع، فأثني عليه فأقتله"⁽¹⁾.

الصعاليك والحرية

هم فئة من الناس وقعوا ضحية مجموعة من العوامل والظروف، أهمها النبذ الاجتماعي، الذي قابله بالخروج من ذلك المجتمع، والتمرد على قوانينه ونظمه، وتحولت حركتهم هذه إلى ظاهرة اجتماعية عرفت باسم "ظاهرة الصعلكة". وبالنظر إلى المعاجم نرى أن "الصعلوك هو الفقير الذي لا مال له، والتصعلك: الفقر... وصعاليك العرب ذؤابها"⁽²⁾.

يقول الدكتور يوسف حليف: "الصعلوك هو الفقير الذي يواجه الحياة وحيدا، وقد جردته من وسائل العيش فيها، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه في مواجهة مشكلاتها"⁽³⁾. فكما يبدو من كلامه أن الصعلوك في خصومة مع حياته بدأتها حياته أولا، حين جردته، وسلبته، وقهرته. إذن الصراع واقع ومحتدم بين الصعلوك وحياته، هي تحرمه وهو يحاول أن يحياها على أية حال مضطهدا.

الصعلوك بين سندان الفقر ومطرقة العادات

لقد تآزرت حزمة من العوامل، وتعاونت في إخراج ما يعرف بالصعلوك، وهذه العوامل منها ما يرتبط بالمكان، ومنها ما يرتبط بالعادات الاجتماعية، ومنها ما هو اقتصادي أفرزته الفروقات الكبيرة في توزيع الثروة والأموال.

أ. العامل الجغرافي: حيث كانت الجزيرة العربية مسرحا لتلك الحركة، وطبيعتها الجغرافية القاسية، امتداد شاسع رهيب، الرمال حارقة، وحر شديد في النهار، يقابله برد قارس في الليل، وأمطار لا تكاد تعرف لهذه المنطقة مكانا. إنها لوحة بائسة، أركانها أرض جدداء قاحلة، وأسباب معيشية مقطوعة لأبناء تلك البيئة وفي مقدمتهم الصعاليك.. فكانت العلاقة بين البيئة والصعاليك صدامية جافة، ألزمت الصعلوك أن يتمتع بقدر كافٍ من الإرادة والشجاعة لتحدي جبروت البيئة ليظل حيا إن أراد.

1 - الأغاني 244/8.

2 - لسان العرب مادة "صعلك".

3 - الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي، يوسف خليف، دار المعارف، مصر 1955، ص 21.

إن الطبيعة جائرة في أقسامها، فثمة مناطق وفرة غنية، وأخرى يكسوها القحط والجفاف، الأمر الذي جعل المناطق الزاهرة قبله أنظار الصعاليك، وغاية مطامعهم.

ب. العامل الاقتصادي: فقد انقسم المجتمع إلى طبقتين، امتلكت الأولى مفاتيح الثراء، بسيطرتها على الأسواق التجارية، وامتلاكها لرؤوس الأموال، الأمر الذي يمكنها من سنّ القوانين، وتشريع التشريعات التي تحمي لها أموالها وتُربّيها. أما الطبقة الأخرى فهي على النقيض تماماً، طبقة مستضعفة، لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً، ينتظرون ما تجود به أيد المحسنين. طبقتان اجتماعيتان متناقضتان، واحدة تملك والأخرى محرومة، ما أدى إلى بروز شرح اجتماعي بعمق ما بينهما من تفاوت، فالهوة بينهما سحيقة، والقسمة بينهما ضيزى. ولا شك أن هناك عاملاً نفسياً زاد من تجذر هذه العلاقة غير السوية في امتهان الأغنياء للفقراء. كل هذا أدى إلى فكرة "الصعلكة" القائمة على الخروج على تلك القبائل، والانسلاخ من قيودها، وكان السبيل إلى إيجاد نوع من التوازن بينهما أن "اتخذ صعاليك العرب من مناطق الخصب أهدافاً يتجهون إليها، ومناطق يعملون فيها"⁽¹⁾

والخالصة.. أن النمط المعيشي والحياتي والسلوكي للصعاليك، القائم في أساسه على الغزو والسطو، والنهب، جاء رداً على الاختلال في ميزان الحياة الاقتصادية وقتئذ. ولعل أهم ما أفرزته هذه الازدواجية الاقتصادية، هو عدم القدرة على التعايش والتآلف بين الطبقتين، كما نتج عنها نقمة، وغضب، وشعور بالقهر لدى الفقراء دفع بعضهم إلى التمرد والعصيان، في محاولة منهم سلب ما حرّموا منه، دون أي ذنب ارتكبه في حق الحياة، لأنهم ولدوا فقراء في أرض شحيحة ضئيلة.

ج. العامل الاجتماعي: انقسم مجتمع الصعاليك إلى ثلاثة أقسام:

- فئة الخلفاء الشداد، وهم الذين خلعتهم قبائلهم بسبب أعمالهم التي لا تتوافق مع أعراف القبائل التي ينتمون إليها مثل حاجز الأزدي، وقيس الحداية.
- فئة أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم، ولم يلحقوهم بأنسابهم مثل السليك بن السلعة، وتأبط شرا، والشنفرى.
- فئة ليست من الخلفاء، ولا أبناء الإماء الحبشيات، بل هم مجموعة احترفت الصعلكة احترافاً، وحولتها إلى ما يفوق الفروسية من خلال الأعمال الإيجابية التي كانوا يقومون بها، وقد يكونون أفراداً مثل عروة بن الورد سيد الصعاليك، وقد يكونون قبائل مثل قبيلتي هذيل وفهم.⁽²⁾

1 - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 75.

2 - سلسلة تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، شوقي ضيف. دار المعارف. ص 375.

إذن تألف مجتمع الصعاليك — إن صحت التسمية — من المتمردين الذين خرجوا من الفئات آنفة الذكر، الأغربة، والخلفاء، والعبيد، أولئك الذين لم يستطيعوا التعايش مع الظلم والهوان من المجتمع المحكوم بقوانين السادة، بما يوافق مصالحهم، ويزيد سلطتهم وتسلطهم.

قد أبت نفوسهم العيش الذليل مع الفقر والجوع، والحاجة في أرض تبخل عليهم، فيما ينعم آخرون بعباتها في بقاع أخرى، وتاقت نفوسهم إلى حياة حرة يشعرون فيها بإنسانيتهم المستتلة. وعليه، فقد تشكلت "عصابات الصعاليك التي قطعت صلاتها بقبائلها، وانطلقت إلى الصحراء كالذئاب الجائعة، ولقد جمع بين أفرادها الفقر، والتشرد، والتمرد، والظلم الاجتماعي، والإيمان بأن الحق للقوة، وأن الضعيف مهضوم حقه في مجتمع ظالم كهذا"⁽¹⁾.

عروة بن الورد.. رحلة إلى الحياة

عروة بن الورد واحد من أولئك الذين بحثوا عن ذواتهم الحقيقية، وسيظل محفوظا في ذاكرة التاريخ نموذجا حقيقيا للرجل الذي كرّس حياته لتحقيق مبدأ، أو غاية إنسانية نبيلة آمن بها، فاتخذ منها شعارا، وإلهاما يعنون مسيرته، ويميز تجربته، ليتحول إلى داع من دعاة المشاركة ذات النزعة الإنسانية التي تضع الإنسان في أولويات اهتماماتها، وتحاول تطويع كل ما يحيط به لما فيه صالحه وخيره، وبهذا استحق عروة اللقب الذي تُؤجّج به، وارتبط باسمه "أبو الصعاليك" على الرغم من أنه لم يكن من أولئك الصعاليك الأغربة، أو الخلعاء، أو العبيد، بل كان ذا نسب شريف في عبس.⁽²⁾ لكنّ هناك سببين رئيسيين في صعلكته: الأول: أن والده كان مصدر شؤم في قومه، إذ كان سبب الحرب التي دارت رحاها بين عبس وذبيان، حرب داحس والغبراء.⁽³⁾ والثاني أن أخواله لم يكونوا عدلا لأعمامه في الشرف، لذا لم يكن عروة معتدا بنسب أمه، فهي من نهد، وأشار إلى هذا شعرا فقال:

مَا بِي مِنْ عَارٍ إِخَالُ عِلْمُهُ * سِوَى أَنَّ أَخَوَالِي إِذَا نُسِبُوا نَهَدُ
إِذَا مَا أَرَدْتَ الْمَجْدَ فَصَّرَ مَجْدُهُم * فَأَعْيَا عَلَيَّ أَنْ يُقَارِبَنِي الْمَجْدُ⁽⁴⁾

سعي إلى المجد، وعار يقف حاجزا دون الوصول، وقلق في النفس، ولا بد من تغيير.

¹ - الغربة في الشعر الجاهلي. عبد الرزاق الخشروم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982م. ص 130.

² - الأغاني 73/3.

³ - الأغاني 88/3.

⁴ - ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت يعقوب بن إسحاق، حققه وأشرف على طبعه، ووضع فهرسه عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ط1، 1966م. ص 47.

كان على عروة أن يبدأ رحلته مع الحياة لبحث عن ذاته، ويتلاقى مع نفسه، بعد أن استشعر التمييز الاجتماعي القائم على تفضيل طرف على آخر، لكنَّ عمرًا استعصى على ذلك التمايز منذ صغره، ورفضه، مما اضطر أباه، وهو الذي كان يفضل عليه أخاه أن يقول مفسرا سبب تفضيل أخيه عليه: "أترون هذا الأصغر-يعني عروة-؟ لئن بقي مع ما أرى من شدة نفسه ليصيرن الأكبر عيالا عليه"⁽¹⁾

أما عروة فقد كره ذلك التفضيل، وولَّد بداخله كرها ونفورا من التمييز في المعاملة، ولم يستطع صبرا على رداءة واقعه الخاص والعام معًا، فقرر الخروج على قبيلته بأعرافها وقوانينها، خرج منها طواعية، تاركًا نسبه الشريف، ليبنى مجتمعا جديدا يضم في كنفه كل من طرد من رحمة القبيلة، أو وقع عليه غضبها، أو حرم عدالتها، مجتمع أساسه العدالة، والمساواة والحرية.

¹ - الأغاني 88/3.

عروة بن الورد.. الإنسانية أولاً

حاول عروة أن يؤسس مجتمعه الجديد على طبقا لفلسفته القائمة على أساس إنساني يرفض التمييز، ويقر بأن الحياة حق للجميع، وأن السبيل إلى ذلك هو العمل المتمثل في الغزو لاغتصاب المال بالقوة من أولئك الذين يمنعون حق الفقراء.. على أن هذا العمل لا يقوم به كسالى الصعاليك ومتواكلوهم، وضعفاء الهمم منهم:

لَحَى اللَّهُ صُעْلُوكاً إِذَا جَرَّ لَيْلُهُ ** مُصَافِي الْمَشَاشِ أَلْفَاكُلَّ مَجْزَرِ
يَعُدُّ الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ ** أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُيَسَّرِ
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِساً ** يَحْتُ الْحَصَى عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَقِّرِ
قَلِيلُ التَّمَاسِ الزَادِ إِلَّا لِنَفْسِهِ ** إِذَا هُوَ أَمْسَى كَالْعَرِيشِ الْمَجْوَرِ
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعْنُهُ ** وَيُمْسِي طَلِيحاً كَالْبَعِيرِ الْمَحْسَرِ⁽¹⁾

في الأبيات صورة مفزعة مخزية منفرة رسمها عروة بن الورد لصعلوك متخاذل اختار من الحياة أسهلها، في رضوخ وذل، وتأنث عجيب، لم يبق إلا أن تلحق بصاحبه تاء التأنث أو نون النسوة! وأقصى همه شبع وري، دون اكتراث بمن سواه. ولعل هذا النموذج قد لا يكون قادرا على البقاء خارج نطاق القبيلة، فقد اختار المذلة، والقهر والتهميش، وفقد إنسانيته على أعتاب قبيلته.

وفي المقابل يقدم عروة نموذجا لصعلوك يريد حياة كريمة، ونفسا عزيزة:

وَلَكِنَّ صُعْلُوكاً صَفِيحَةً وَجْهَهُ ** كَضَوْءِ شَهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ
مُطَلَّاً عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ ** بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمَشْهُرِ
فَذَالِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِئِيَّةَ يَلْقَاهَا ** حَمِيداً وَإِنْ يَسْتَغْنِي يَوْمًا فَأَجْدَرِ⁽²⁾

عروة وكرم إنسانيته

إن إنسانية عروة وجوده يتمثلان أفضل تمثيل في طريقة حياته ومعاملته للصعاليك، الذين كثيرا ما كانوا يتدللون عليه، فيتحملهم ويصبر عليهم، ويعفو عن مسيئتهم، ولطالما قرن كرم عروة بكرم حاتم الطائي، وقديما قال عبد الملك بن مروان: "من زعم أن حاتما أسمح الناس، فقد ظلم عروة بن الورد"⁽³⁾ يقول عروة عن نفسه:

1 - ديوان عروة بن الورد 73-77

2 - ديوان عروة بن الورد 78-82.

3 - الأغاني 74/3.

إِنِّي إِمْرُؤُ عَافِي إِنَائِي شِرْكَةً ** وَأَنْتَ إِمْرُؤُ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدُ
أَهْزَأُ مَيِّ أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى ** بَوَجْهِي شُحُوبَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ جَاهِدُ
أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ ** وَأَحْسُو قَرَاخَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ⁽¹⁾

يا لها من أبيات تتجلى فيها إنسانية عروة العميقة، وكرمه غير المحدود، يطبق فيه عروة قانون المشاركة الذي اهتدى إليه بفطرته النقية وأخلاقه العالية.

لقد اتضحت لعروة سبيله، واستبان طريقه، ووضحت غايته، ووجد ذاته المفقودة بسبب قوانين قبيلته. لقد وجدها في العطاء، وتخليص الفقراء من ذل الفقر، وربقة العبودية؛ لتعرف الحرية طريقها إليهم، مما استوجب سعيه في مناكب الأرض طالبا للكسب، وتوزيعه راضيا على المعسرين. يقول:

دَعَيْني أَطَوِّفُ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي ** أَفِيدُ غِنًى فِيهِ لِيذِي الْحَقِّ مُحْمِلُ
أَلَيْسَ عَظِيمًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ** وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْحَقِّ مَعُولُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعًا بِحَادِثٍ ** ثَلِمَ بِهِ الْأَيَّامُ فَالْمَوْتُ أَجْمَلُ⁽²⁾

إن صوت الإنسانية بداخله يدفعه إلى حد الشعور بالذنب والعار إن نزلت النوازل بأولئك الناس في وقت لا يكون فيه قادرا على إجابتهم وإعانتهم.

إذن، صعلكة عروة كانت حركة ضد التميز بين الناس على أساس خاو؛ فهذا غني محترم، وذاك فقير منبوذ، كان نهج سيد الصعاليك في ثورته الوردية نهجا يعتمد النظام، والاعتدال، والتوازن. لم يتسم بالعنف والقسوة أو الفوضى. وبهذا فقد "انتقل هذا الصعلوك نقلة نوعية واعية بالصعلكة... وعمل على أن يجعلها أقرب إلى الثورة من أجل المجتمع بدلا من أن تكون ثورة عليه"⁽³⁾

لم يكتب الاكتمال لمشروعه، لغياب المناخ الموضوعي الحاضن، ولو استطاع المضي به إلى آخر الطريق، لربما انهارت بعض المفاهيم البالية التي أوصلت أمثال صعاليكه إلى تلك الحال؛ لتنهض مبادئ وقيم جديدة.

1 - ديوان عروة ص 51.

2 - السابق ص 131.

3 - الشعر الجاهلي وأثره في تغيير الواقع (قراءة في اتجاهات الشعر المعارض) د. علي سليمان، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 2000م، ص 264.

المتنبي.. الشاعر الطموح، والشارد الجموح، والصخرة النطوح

اسمه، أبو الطيب أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبي من أصل عربي جعفي ينتهي إلى كهلان من القحطانية. وُلد في الكوفة سنة (915م، 303هـ) من أسرة وضعية في محلة تدعى «كندة» فُنسب إليها وكان أبوه سقاء في الكوفة يستسقي على جملة لأهل محلة كندة ويعرفه القوم بعبدان السقاء والمرجح أنّ أمّه ماتت وهو طفل فقامت له جدّته مقام الأم. ونشأ الفتى في الكوفة أحد مواطن الحضارة العباسية وأهمّ موطن للشيعة من قديم.

اشتهر بقوة الذاكرة وشدة النباهة والذكاء والجِدّ في النظر إلى الحياة والمقدرة على نظم الشعر. نشأ المتنبي في البادية والشام وعاش بين القبائل فأخذ عنهم الفصاحة. وكان أبوه يسافر به وهو صغير إلى الشام متنقلاً من البادية إلى الحاضرة وأخذ اللغة عن قبيلة بني كلاب. اعتنى به والده منذ صغره وكان من نشأته عالي الهمّة، كبير النفس، طموحاً إلى المجد. أبو الطيب المتنبي عربي أصيل، صحيح الانتساب إلى عرب يمن. ورث عن أجداده النزعة العربية والفروسية وتخلّق بهما و لذلك طبع شعره بطابع كل منهما¹.

يرسم علي الجارم ملامح وصفات جسدية لشخصية المتنبي وهو في سن التاسعة والثلاثين من عمره على النحو التالي: "طويل فاره، خفيف اللحم، أسمر اللون، عريض الجبهة، برّاق العينين، شديد سوادهما، مستقيم الأنف، ترتفع أرنبته إلى ما يقرب من الشمم، في شفّيته رقة، وفي ملامحه ما ينم على ما يملأ هذا الصدر من آمال جسام".⁽²⁾ إن كلمات المتنبي: أصوات رنانة مجلجلة، تثير الحمية، وتلهب العزائم، وتخلق من اليأس ثقة، ومن التردد إقداماً، وتذكر بالمجد الغابر، وتوجه الأمل الحائر، وتوقظ النفوس إلى ما يحيط بها.

المتنبي وإثبات الذات

إن المتنبي منذ نشأته متطلع إلى آفاق في الحياة عراض، ويرى نفسه أنه طموح إلى ما فوق السماء، وأن الناس يرون هذا السمو والطموح إلى المعالي كبر وغرور، وهو يرى أنه لا يزال في فسيح الأرض مضطرب للكريم الذي يطلب ما يعجز عن ورده، ويبتغي ما هو أجلّ من أن يسمّى. وهو في سبيل تحقيق طموحه الذي يسعى إليه هجر سيف الدولة الحمداني الذي لم يجد عنده بغيته، ورحل إلى مصر (في طليعة جمادى الآخرة سنة 346 هـ) تثور في نفسه "شياطين الجشع والطموح". وفي سبيل تحقيق أحلامه وأطماعه وطموحاته "نسى العبد الأسود وما في مدحه من مذلة ومهانة".

¹ - تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات) شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ص 341.

² - الشاعر الطموح، علي الجارم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2011م، ص 19، 20.

وقد وُصِفَ المتنبي بالجرأة والإقدام والبعد عن ضعف النفس وخَوَرها. ولعلَّ حياته الأولى في البادية كان لها أثر في صفاته وأخلاقه. ومن مشهور قوله خطابه لنفسه حاضاً إياها على الجرأة والمخاطرة:

رِدِّي حياضَ الردى يا نفس واتركي حياضَ خوف الردى للشاء والنعم⁽¹⁾

كان من أبرز صفات المتنبي طموحه الزاعق، وهو طموح جعله لا يدري ما يريد من الأيام: فتارة يطمح في ولاية يدير أمرها فيكون له عزٌّ وجاءة وسلطان، وأخرى يطمح في مجهول لا يستطيع له تحديداً. يقول لكافور في إحدى مدائحه:

وغير كثير أن يزورك راجلٌ ** فيرجع ملْكَاً للعراقيين وإلياً⁽²⁾

وحين يحس تراخيًّا منه يلح عليه أن يحقق له هذا المطلب:

أبا المسك، هل في الكأس فضلٌ أناله؟ ** فإني أغني منذ حين وتشرب⁽³⁾

ولعل طموحه كان ثمرة لعصره المثقل بالاضطرابات والدسائس. فشهوة المجد في نفسه لم تكن أقل منها في نفوس غيره من أولئك الطامحين في إمارات تتقاذفها الأيدي كل حين. إلا أن هذا الطموح كان ينقصه الدهاء والقدرة على التخطيط واتخاذ العدة لنيل المراد، فبقي من ثم مجرد كلام، وإلا فمتى كانت الولايات تعطى للشعراء على سبيل الشحاتة أو لقاء قصيدة مديح؟ كما أن المتنبي لم يكن رجل دولة ولا إدارة بل شاعراً فحسب، وشاعراً عبقرياً. ولو كان يصلح لذلك لما غاب هذا عن عين سيف الدولة، التي كان يقدره ويعتز به ويفاخر بأنه شاعر بلاطه، ولأعطاه منصبا إداريا أو حربيا.

وديوان المتنبي حافل بما يعبر عن هذا الاعتداد بالنفس والشعور بالتفوق، وهو اعتداد أدى به إلى مخاطبة الأمراء دون مهابةٍ مخاطبة الصديق للصديق، والند للند. وفي بعض الروايات أنه كان ينشد الشعر جالساً أمام سيف الدولة كما سبقت الإشارة، وأن طاهرًا العلوي أجلسه على سريريه وجلس بين يديه. فأدت هذه النفس المتفوقة بالمتنبي إلى قدر وافر من الإحساس بالإباء والشمم:

خليلي، إني لا أرى غير شاعر ** فلم منهم الدعوى، ومي القصائد؟

فلا تعجبا.. إن السيوف كثيرةٌ ** ولكن سيف الدولة اليوم واحد⁽⁴⁾

1 - شرح ديوان المتنبي، البرقوقي 160/4.

2 - السابق 427/4.

3 - السابق 1/306.

4 - السابق 1/394.

سبب بحثه عن ذاته

كثير من الدراسات النقدية أشارت إلى أن نشأته المرتبطة بالفقر قد أثرت في سعيه لجني المال، وتحصيله بكل السبل، وأشارت إلى صفة البخل عنده الناتج عن سعيه لجلب العلا.⁽¹⁾

وفي ظني أن ضعف نسب المتنبي جعله يبحث عن ذاته ونفسه ليفخر بها دون قومه، بل وإن فخر بقومه جعل فخرهم أنه منهم:

لَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي ** وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدودي⁽²⁾

ويؤيد ما ذهب إليه سمير فراج حين يقول: "ولم يفخر المتنبي بنسبه، حيث لم يكن رفيع النسب، منتميا لأحد البيوت الكبيرة، وإنما كان من أسرة فقيرة، وكان أبوه يعمل سقاء بالكوفة"⁽³⁾

هذه النشأة المتواضعة، إضافة إلى فقره كانت السبب وراء بحث المتنبي عن ذاته ونفسه، حيث يرى ذاته محمور الكون لا تضاهيها الجبال وإن ارتفعت، والسفوح وإن اشتد خوفها على غيره، والبحور وإن اتسعت، يقول:

وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أَنَّيَ ال ** جِبَالٌ وَبَحْرٌ شَاهِدٌ أَنَّيَ الْبَحْرُ
وَحَرِّقَ مَكَانُ الْعَيْسِ مِنْهُ مَكَانُنَا ** مِنْ الْعَيْسِ فِيهِ وَاسِطُ الْكُورِ وَالظَّهْرُ⁽⁴⁾

ذلك لأنه يرى نفسه تستحق أن تكون الأفضل:

أَنَا مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ أَطْيَبُ مَنْزِلًا ** وَأَسْرُّ رَاحِلَةً وَأَرْخُ مَتَجَرًا⁽⁵⁾

فنفسه التي يراها، وإن غفل عنها الناس، نجم يهتدي به الحائرون، والباحثون عن نموذج مثالي للنفس المترفعة:

وَإِنِّي لَنَجْمٌ تَهْتَدِي بِي صُحْبَتِي ** إِذَا حَالَ مِنْ دُونِ النُّجُومِ سَحَابُ
غَنِّي عَنِ الْأُوطَانِ لَا يَسْتَفِرُّنِي ** إِلَى بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إِيَابُ⁽⁶⁾

ولعل القارئ يستطيع أن يستشف من شعر المتنبي معاني الطموح، والتعالي، وبلوغ المراتب العليا، فهو يستهل أغلب قصائده بمطلع حكيم يشيد ويعظم ويفتخر ويتعالى إلى المراتب العليا، أليس هو القائل:

1 - سيرة المتنبي، سلمان هادي طعمة، مجلة المورد العراقية، المجلد السادس، العدد الثالث، وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1977م. ص 155 وما بعدها.

2 - شرح ديوان المتنبي، البرقوقي 46/2.

3 - شعراء قتلهم شعرهم، سمير مصطفى فراج، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، 1997، ص 86.

4 - شرح ديوان المتنبي 256/2.

5 - السابق 279/2-280.

6 - السابق: 316/1.

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ** وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا ** وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ⁽¹⁾

وفخر المتنبي بنفسه وشعره يرد كثيرا في ثنايا خطابه الشعري، وكأنه يدرك أن هذا الخطاب هو المفتاح الحقيقي لتحقيق ذاته، وإيجاد نفسه وسط هذا الخضم من المنافسين له، والحاquدين عليه. لكن يكفيه من قال فيه "ثم جاء المتنبي، فمألاً الدنيا، وشغل الناس"⁽²⁾
أمل دنقل.. صعلوك العصر الحديث

ولد أمل دنقل سنة ألف وتسعمائة وأربعين من الميلاد، بقرية القلعة، مركز مدينة قفط، على مسافة قريبة من مدينة قنا في أقصى صعيد مصر.

كان والد أمل دنقل من خريجي الأزهر الشريف، وقد سماه والده بهذا الاسم "أمل"؛ لأنه ولد في نفس السنة التي حصل فيها والده على إجازة العالمية تيمناً بالنجاح الذي حققه، وقد توفي والد أمل دنقل وهو في العاشرة من عمره.

واصل أمل دنقل تعليمه حتى حصل على الثانوية العامة القسم الأدبي، ثم التحق بكلية الآداب جامعة القاهرة، لكنه تركها في السنة الثانية ولم يكمل تعليمه الجامعي.

ثم التحق بعد ذلك بالوظيفة، وتنقل بين وظيفة وأخرى ولم يستقر في عمل معين، ثم تفرغ بعد ذلك للشعر، وقد تزوج سنة ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين من الصحفية "عبلة الرويني". ولازمه مرض السرطان لأكثر من ثلاث سنوات، حتى أسلم الروح إلى بارئها في مايو سنة ألف وتسعمائة وثلاثين.

النشأة، والتكوين، والتأثير

كان والده رجلاً أزهرياً صعيدياً محافظاً فرض العزلة على طفولة أمل، وعامله معاملة رجل صغير ليس من حقه اللعب والنزول إلى الشارع والتعامل مع الأطفال، حتى نشأ أمل طفلاً انطوائياً خجولاً⁽³⁾.

فقد أخته وهو في سن السابعة من عمره، ثم فقد أباه وهو في العاشرة، ثم ظلمه أعمامه وهم أقرب الناس إليه في ذلك الوقت، حيث استولوا على إرثه أمام عينيهِ، عَلَّمَهُ اليتيم والألم ومرارة الظلم أن يصبح رجلاً صغيراً منذ طفولته، عَلَّمَهُ حصار الظالمين، وظلم الأقربين الانتباه الشديد للناس إلى حد الفزع، وَعَلَّمَهُ أن يكره كل الظلم وكل القبح

1 - السابق 94/4.

2 - العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دتر الجليل، بيروت، لبنان، 1981م، 1/193.

3 - الجنوبي، عبلة الرويني، دار سعاد الصباح، القاهرة، 1992م، ص 55.

وكل الزيف، وعَلَمَه كل ذلك أن يهب أحلامه للفقراء، وأن يخاصم الظلم، ويخاصم العدل الذي لم يتحقق⁽¹⁾.
عُرِف عن أمل دنقل التزامه بتماسك أسرته، واحترامه لقيمها ومبادئها، وورث عن أمه الاعتداد بذاته، وورث
عن أبيه شخصية قوية ومنظمة.

كان في صباه الباكر شديد التدين، لا يترك فرضاً، يلقي خطبة الجمعة في المساجد، ويحمل عهداً على منهاج
الشيخ إبراهيم الدسوقي، ثم ترك النشاط الديني في شبابه معجباً بالماركسية والوجودية⁽²⁾.

صعيدي حتى النخاع، شديد الغيرة في كبرياء، شديد النقاء، شديد العناد، شديد الثأر⁽³⁾.
ذكرتُ بعض تفاصيل نشأة أمل دنقل لكي أقف منها على مجموعة من النقاط المهمة التي أثرت فيما بعد
على تكوينه الفكري والثقافي، ونظرته للحياة، ومن ثم على رؤيته الشعرية، منها على سبيل المثال:

■ نبرة الحزن الملازمة لأمل دنقل والتي مردها - فيما أرى - إلى اليتيم، فلقد فقد أباه وهو في سن العاشرة من
عمره، وهو أحوج ما يكون لأبيه، وقبل ذلك فقد أخته وهو في سن السابعة من عمره، وهذا جعله في
مواجهة الموت وفلسفته، وأثره النفسي الذي يفجر الطاقات، ويثير العواطف الكامنة والوجدان، ثم الإحساس
بالظلم والقهر والذي مردّه إلى ضياع إرثه حيث استولى عليه أقرب الناس إليه بعد أبيه وهم أعمامه أمام
عينيه، وهذا جعله يتعامل بتوجس وحذر شديد مع كل الناس مهما كانت صلته بهم.

■ التناقض الواضح في تركيبة أمل دنقل الذهنية، ومن ثم الحيرة والاضطراب الذي يسيطر على مثل هذا
الأنموذج من المبدعين، لأن هذه الشخصية بهذه التركيبة، وهذا المكون الثقافي والفكري، تقع فريسة بين
المطرقة والسندان - كما يقال في المثل - بين النشأة الدينية المحافظة، فأبوه عالم أزهر يقيم الشعائر، وأمّه ربة
بيت مثل ملايين الأمهات في ريف مصر وصعيدها المؤمنات إيماناً فطرياً، وكان أمل دنقل مقيماً للشعائر
أيضاً كأبيه، وخطيباً للجمع، رُبِّي في أسرة محافظة على القيم والأخلاق، وبين إعجابه بل واعتناقه للأفكار
الماركسية التي أغرت الكثيرين من أبناء هذا الجيل الذين فتنوا بها وظنوا أنّ فيها النجاة والخلاص، يظل حائراً
بين الفكرين يتنازعانه ويتجادبانه طول الوقت، فتبدو هذه الشخصيات حائرة قلقة غير مستقرة لأنه - فيما
أظن - غير مؤمن بهذه الأفكار إيماناً كاملاً، لأن الحس الإيماني الذي غرس فيه صغيراً يلفظ هذه الأفكار،
وواقعه المعيش البئيس المتمثل في تخلف المسلمين، وبُعدهم عن دينهم بسبب حقبة الاستعمار التي تركت
المجتمعات الإسلامية - عن قصد - مجتمعات مشوهة لا هي غربية ولا هي شرقية تجعله يبحث عن خلاص،

1- المصدر السابق، ص 56.

2- وميض تغتاله العتمة، د. خيرى حسن، مقال على شبكة الإنترنت.

3- الجنوبي، عبلة الرويني، 15.

ولكن المفارقة تظهر عند التطبيق والمحك العملي، حيث نجده يرفض الانحلال والإباحية، وكل سلوك ينافي القيم والأخلاق التي تربي عليها وآمن بها، يدلنا على ذلك سيرته ومواقف حياته ومن بين هذه المواقف والأحداث موقف تذكره زوجته السيدة عبلة الرويني وهو على سرير المستشفى في طريقه لإجراء أول جراحة لاستئصال أول ورم سرطاني أصابه، سمعته يردد الشهادتين، فتقول له زوجته: "أمل لقد ضبطك متلبساً بالإيمان ابتسم في هدوء مردداً. في همس. خائف"⁽¹⁾، وكان غيوراً على زوجته محافظاً على تماسك أسرته إيماناً بها لذا تزوج وكان حريصاً على تكوين أسرة، وذكرت زوجته أيضاً موضحة هذا التناقض الذي تميزت به شخصية أمل دنقل فتقول: "تأخذ محاولة العثور على مدخل حقيقي لشخصية أمل شكل الصعوبة حين يصطدم فيه بعالم متناقض تماماً يعكس ثنائية حادة كل من طرفها يدمر الآخر، ويشئت الكثير من أشكالها، إنه الشيء ونقيضه في لحظة نفسية واحدة يصعب الإمساك بها، وال العثور عليه فيها، فوضوي يحكمه المنطق، بسيط في تركيبة شديدة، صريح وخفي في آن واحد، انفعالي متطرف في جرأة ووضوح، وكثوم لا تدرك ما بداخله أبداً"⁽²⁾.

ثم تستطرد فتقول: "يكره لون الخمر في القنينة، لكنه يدمنها استشفاء، قلق لا يحمل يقيناً.. تاريخ معتقداته حافل بالعصيان لكنه غير ملحد... عاشق للحياة مقاوم عنيد يحلم بالمستقبل والغد الأجل مع قدر كبير من العدمية يزدري فيها كل شيء، ويدمر كل شيء، ويؤمن بحتمية موته، التردد والحيرة والشك والارتباب"⁽³⁾.

ما سبق ربما يفسر لنا حيرة وتناقض هذه الشخصيات لأن الأفكار الماركسية لم تستطع أن تمحو أثر التدين في نفوس أصحابها، فيعيش طوال حياته ممزقا بين الفكرين لا يستطيع أحدهما أن يمحو الآخر، وزاد هذا النوع من المبدعين بؤساً وشقاءً عدم نجاح الحركات القومية والفكر الاشتراكي في تقديم بديل حضاري للفكرة الإسلامية، بل أخفقت على كل المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، وتوجت هذه النكبات بهزيمة (حزيران يونيه سنة 1967م)، هذه النكبة الكبرى التي أفاق على إثرها المبدعون الشرفاء وعلى رأسهم أمل دنقل، وهذا يحسب في ميزان أمل دنقل الإبداعي والأخلاقي، أفاقوا من الوهم الذي عايشوه فترة طويلة، فهي ليست هزيمة عسكرية للأمة وحسب، ولكنها هزيمة للفكر الاشتراكي، وللزعامة القومية المتمثلة في جمال عبد الناصر الذي تعلقت به آمال الأمة العربية وخاصة الشباب والمبدعين، فخيبت هذه الآمال واتضح جلياً في نهاية الأمر أن هذا الفكر

1- الجنوبي، عبلة الرويني، ص 114.

2- المصدر السابق، ص 9.

3- الجنوبي، عبلة الرويني، ص 114

البراق ما هو إلا فقااعات غازية لم تلبث أن انفجرت في وجه من علّق بها أملاً يوماً ما.
الحقيقة إن ثورة يوليو سنة 1952، والفكر الاشتراكي كانا أمل جموع الشعب العربي الكادح، ومنهم أمل دنقل الفقير ابن أقاصي الصعيد، ولكنه في وقت مبكر . شديد التكبر . لم يخدع كآخرين بل كان منتبهاً لأخطائها وخطاياها، ولم يدهن أو ينافق، كان صادقاً مع نفسه، ومع ما اعتنق من أفكار ومبادئ، وكان مخلصاً لمحبوته الأثيرة التي نذر لها نفسه منذ البداية وحتى آخر رمق في حياته معشوقته الحرية، فقد سجل رفضه بعين المبدع الباحث عن أعز ما يملك الإنسان وهو الحرية التي يجب أن يراها المبدع واقعاً في حياته، يراها ماثلة أمام عينيه حية في كل شيء حوله، أما الحرية المزعومة التي يراها الناس على شاشات التلفاز والفضايات، تلوكها ألسن المسئولين أمام الكاميرات في المناسبات المختلفة، فتح أمل دنقل نار سحرته عليها، الحرية التي فتحت أبواب السجون على مصاريعها، وفي ذلك يقول في قصيدته "صلاة":

أبانا الذي في المباحث: نحن رعاياك

باقٍ لك الجبروت

وباقٍ لنا الملكوت

وباقٍ لمن تحرسُ الرّهوت

تفردت وحدك باليسر . إن اليمين لفي الخسر

أما اليسار ففي العسر .. إلا الذين يُماشون

إلا الذين يعيشون يحشون بالصحف المشتراة

العيون فيعيشون . إلا الذين يشنون . وإلا

الذين يؤشون ياقات قمصانهم برباط السكوت!

تعاليت ماذا يهّمك ممن يذمّك؟ اليوم يومك

يرقى السجين إلى سدة العرش

والعرش يصبح سجناً جديداً وأنت مكانك . قد

يتبدل رسمك واسمك . لكن جوهرك الفرد

لا يتحول . الصمت وشمك . والصمت وشمك

والصمت . حيث التفّت . يرين ويسمك

والصمت بين خيوط يديك المشبكيتين المصمغتين يلف

الفراشة .. والعنكبوت

أبانا الذي في المباحث . كيف تموت

وأغنية الثورة الأبدية

ليست تموت !! (1)

فأمل لم يداهن، ولم يبحث عن شهرة أو مكاسب مادية، كان شعره صدى لما يؤمن به، ولو كان في هذا إيذاؤه، وبُعده عن الأضواء، لم يعبأ بهذا كله، بل عبّر عما يؤمن به أصدق تعبير، فكان أسلوب حياته ومنهجها صدى لما يؤمن به ويعتقده، يبين هذا قول زوجته السيدة عبلة الرويني: "يمكنه كثيراً النوم جائعاً، بينما يستحيل عليه النوم متنازلاً، أو مساوماً، أو مصالحاً، وما أكثر المتنازلين العارضين أنفسهم في أسواق البيع والشراء، ينامون وبطونهم تمتلئ بالتخمة وعقولهم بالمهانة"(2).

اعتمد أمل دنقل على ذاته، وعلى موهبته الشعرية فقط دون غيرها، وربما تكون الموهبة هي السند الأكبر في ذلك، فهي التي مكنته من هذا كله، فهو لا يبحث عن سند خارج ذاته، بعد أن أكسبته الأيام وتجارب حياته قدراً كبيراً من انعدام الثقة، أكسبه الاعتماد على ذاته أيضاً ثقة زائدة بالنفس، واعتداداً بها، فكان دائماً يسير ولا يلتفت لأحد كعادته، كان رده الوحيد هو كلمته وقصيدته، فقد كان المهمل في حياته هو الكتابة، وليس البحث عن بطولات زائفة هزيلة، مؤمناً أن شرفه الحقيقي هو الشعر، وطريقه الوحيد للنضال يمر من خلال القصيدة ولا شيء سواها³.

وهذه هي قضية أمل الكبرى التي عاش من أجلها مناضلاً، وهو يعبر عن هذا المعنى حين يقول:

كنت لا أحمل إلا قلمًا بين ضلوعي

كنت لا أحمل إلا قلبي

في يدي: خمس مرايا

تعكس الضوء (الذي يسري إليها من دمي)

.. طارقاً باب المدينة:

"افتحوا الباب"

فما ردّ الحرس

"افتحوا الباب ... أنا أطلب ظلاً"

1- الأعمال الكاملة، أمل دنقل، ديوان العهد الآتي، قصيدة "صلاة"، دار الشروق، طبعة 2 سنة 2012م ص261: 262.

2- الجنوبي، عبلة الرويني، ص78.

3- المصدر السابق، 48.

قيل: "كلا" (1)

أكسبه الاعتماد على ذاته . كما قلت . ثقةً زائدة بالنفس، واعتدادًا بها، فكان دائمًا يسير ولا يلتفت لأحد، كان رده الوحيد هو كلمته وقصيدته، فقد كان المهم في حياته هو الكتابة ولا شيء غيرها.

الناظر في سيرة أمل دنقل، سيجد أن في شخصيته تماهيًا مع الكثير من ملامح وصفات الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ومع أهدافهم النبيلة ومع القضايا الفكرية والاجتماعية التي شغلتهم وكان لهذه السمات أثرًا في تكوين رؤيته الشعرية، ومن ثم نظرتة للعالم من حوله.

يقول الدكتور عبد العزيز المقالح وكان صديقًا مقربًا من الشاعر أمل دنقل: "لم يكن أمل يخاف من شيء أو يخاف على شيء، وساعدته عفويته المنطلقة وطبيعته غير المنضبطة على الاحتفاظ بنقائه وتمرده، لهذا كان وصف الشاعر الصعلوك يتردد كثيرًا في الأوساط الأدبية المصرية كلما ذكر، وكثيرًا ما قيل هذا الوصف بحضوره فيضحك ويعتبر هذا الوصف أو اللقب تحيةً كريمةً لشاعر معاصر ينأى بنفسه عن الاقتداء بالشعراء المدجنين شعراء الحواضر، والصالونات المعطرة والبذلات الأنيقة، والسيارات الفارهة، كان واحدًا من موكب جليل للشعراء الصعاليك المعاصرين الذين يرغبون عن عالم المغريات المختلفة، وأن يظلوا خفافًا نظافيًا لا تأسرهم زينة الحياة الدنيا ولا تشدهم إلا بمقدار ما تمكنهم معطيائها الصغيرة من الكتابة والإبداع"⁽²⁾.

في العصر الحديث أخذت الصعلكة مظهرًا جديدًا يقوم على الفكر، والسياسة ونقد المجتمع، وهذا يدل على أن مفاهيم الصعلكة تتطور من عصر إلى عصر بتطور أشكال الحياة والطبيعة التي يعيشها المتمردون في كل زمان واعتنقها المبدعون.

تميز العصر الحديث بأنه عصر العلم والتطور، فتطورت الحياة البشرية، ووسائل معيشتها تطورًا مذهلاً، وفي المقابل ظهر اختلال في قيم المجتمع وشيوع ظواهر، وأوبئة اجتماعية من طمع الإنسان فيما يملك غيره، ومن حب السيطرة والتملك، والأثرة والأنانية، ونهب ثروات الشعوب بأي حجة، فلن يعدم المغتصب الحجج إذا فقد ضميره، وفقد تعاطفه الإنساني مع أخيه الإنسان وتفشت ظواهر الاضطهاد والظلم، وقمع الحريات وعادت الطبقة في صورة أقصى من سابقتها في العصور الماضية، وهذه المرة لم تكن من الاستعمار ولكن من بني جلدتنا؛ ولذا نستطيع أن نقول: "إن صعلكة اليوم صعلكة فكر وفن، وظرف وفكاهة، ... وصعلوك اليوم رقيق الحس والمشاعر يحركه إحساس بالانعزال داخل مجتمعه، الانعزال النابع من رغبته في إعادة التوافق مع الآخرين"⁽³⁾.

1- الأعمال الكاملة، أمل دنقل، ديوان: "تعليق على ما حدث"، قصيدة "حكاية المدينة الفضية"، 227.

2- مقدمة الأعمال الكاملة للشاعر: أمل دنقل، د. عبد العزيز المقالح، مكتبة مدبولي، ط 3، 1407هـ، 1987م، 24.

3- الصعلكة في الشعر المصري الحديث، عاطف بهجت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 2003م، 34.

نفهم من هذا أن صعاليك اليوم يختلفون عن صعاليك الأمس، فصعاليك أو متصعلكوا هذا العصر ليسوا فئة "تقطع الطريق، وتستاق الإبل، وتنهب الأغنياء لحساب الفقراء، ولكنهم فئة مثقفة واعية يضيقون بالأغنياء لا لغناهم ولكن لأوضاعهم المتميزة في المجتمع بسبب ثرائهم فقط"⁽¹⁾.

من الواضح أن ما يجمع صعاليك اليوم، وصعاليك الأمس هو التمرد، والخروج على ما يسود المجتمع من ظلم وتفاوت في الحقوق، ورفض الأوضاع الجائرة، ويذكر الدكتور عاطف بهجت أن أبرز شعراء الصعلكة حديثاً عبد الحميد الديب، وعلي محمود طه، وصلاح عبد الصبور، وأمل دنقل، وأحمد عبد المعطي حجازي⁽²⁾.

وأنا أختلف مع هذا القول جملة، فلا تنطبق الصعلكة بمفهومها المتكامل إلا على اثنين فقط مما ذكر وهما أمل دنقل، وعبد الحميد الديب، مع الفارق الكبير بينهما صحيح إن البؤس الذي عانى منه الشاعران متشابه ويكاد يكون واحداً إلا أن بؤس عبد الحميد الديب ذاتي وناتج عن نهم شديد إلى الحياة في حين إن بؤس أمل دنقل عام وناتج عن زهد في الحياة ولو أن عبد الحميد الديب وجد الأبواب الواسعة إلى النعيم كما وجدها أمل دنقل لما تردد عن دخولها غير هيب ولا متحرج، وهذا الفارق يكفي لمعرفة ما بين الشعاعين من تباين واختلاف⁽³⁾.

فأمل دنقل عزف عن مباهج الحياة، ومناصبها، ولو رضي وآثر السلامة لعاش حياة رغدة ملؤها البهجة والنعيم، والشهرة، والمجد الشخصي، مثل ما فعل صديق عمره عبد الرحمن الأبنودي، وفعل أستاذه وقدمته أحمد عبد المعطي حجازي، وصلاح عبد الصبور وغيرهم. لكنه رفض كل المغريات، وكان مخلصاً لفكرته متماهياً معها أشد التماهي، وآثر أن يكون في صف الفقراء والمهمشين، ومع الحقوق والحريات ووقف إلى جانب قضايا أمتة المصرية. إذ كيف تعيش عيشة الترف والنعيم، وتتحدث عن الفقراء والمهمشين فما أقسى القوى خطيئاً بين الضعفاء. "وقد أثبت الشعر على مر العصور بما في ذلك العصر الحديث أنه كفيلاً ألا يلحق أسراراً العميقة ولا يضع ناره المقدسة إلا في النفوس الزاهدة، والقلوب البريئة من التطلعات المريضة، وقد ظلت تلك هي أبرز سمات الشعراء الحقيقيين جيلاً بعد جيل فلم تطوح بهم الرغبات الخاصة وتدفع بهم بعيداً إلى سراديب مضاعة تصرفهم عن الشعر وتصرفهم عن الناس، وإن كان حدث غير ذلك فهو استثناء عن القاعدة، والاستثناء كما يقول المناطقة لا يعول عليه ولا يؤخذ به"⁽⁴⁾.

إن الصعلكة بمفهومها السابق قد وظفت في الشعر الحديث بوصفها رمزاً للتمرد والثورة على الظلم

1- المصدر السابق نفسه.

2- المصدر السابق نفسه.

3- مقدمة الأعمال الكاملة للشاعر: أمل دنقل، د. عبد العزيز المقالح، 26.

4- المصدر السابق، 24: 25.

والاحتجاج على الواقع الراهن، وما يعتريه من قهر واستبداد، وغالبا ما ينصب التمرد على غياب الحريات والإقصاء والتهميش.

وأمل دنقل كان واحداً من الشعراء الصعاليك المعاصرين الذين زهدوا عن عالم المغريات المختلفة المتوفرة لشعراء البلاط إذا جاز التعبير، كان صورة فريدة في صعلكته وفي محافظته على الصعلكة الشعرية بثوبها المعاصر⁽¹⁾. كان حريصاً على البقاء في خط الشعب، والدفاع عن آلامهم وأحلامهم ورؤاهم، وفضل التخندق دوماً في الصفوف الأولى للأمة، لم يكن فكره فكراً بارداً في عقله يلقيه في الأمسيات والصالونات بل كان تجربة عملية مريرة عاشها بكل جوارحه حين رفض الوظيفة، والتجأ إلى الشعر، رفض كل المغريات التي تجعل منه شاعر بلاط، كان يستطيع أن يفعل ذلك فيرفل في أثواب النعيم.

الخاتمة

- كانت هذه بعض نماذج البحث عن الذات في الشعر العربي-وما أكثرها- حاولت أن أعرض صورة حقيقية لبعض أصحاب المبادئ والأفكار من الشعراء العرب الباحثين عن ذواتهم في ثنايا مجتمعاتهم التي تموج بقوانين الظلم الإنساني، حيث حاولوا تغيير هذا النمط، وإن كلفهم ذلك السجن أو حتى القتل.. وقد توصل البحث إلى عدة نتائج أهمها:
1. كشف البحث عن مظاهر القهر الاجتماعي في المجتمع الجاهلي الناتج عن عنصرية القوانين والأعراف.
 2. هذه القوانين الوضعية جارت على أفراد فئات يعينها، بل كانت سيفاً مشهراً على رقابهم، خاصة تلك القوانين المتعلقة بالنسب والأصل واللون.
 3. رفض كثير من الشعراء الجاهليين تلك القوانين الجائرة، وشرعوا في تأسيس مجد لهم يحاولون فيه بناء ذواتهم مثل عنتر بن شداد، وعروة بن الورد.
 4. رأى بعض الشعراء أن المجد ولقاء النفس ليس شرطاً أن يتحققا في بلاط الملوك، ومجالسة الحكام، بل في رفض الباطل وإقرار الحق حتى ولو كان الثمن إزهاق الروح، وقد كان من طرفه بن العبد.
 5. شكلت العوامل النفسية والتحولات الاجتماعية والإنسانية عنصراً مهماً في تشكيل نفسية المتنبي الطموح الجموح.
 6. في رحلة بحثه عن نفسه تباينت نفسية المتنبي بين التوهج والتضخم تارة والاستكانة والضعف تارة أخرى طبقاً للموقف.

7. المتنبّي فقد كانت حياته كلّها نسيج آلام مضنية فهو أبدأً بين آمال رحبة وخيبة قائمة تجسّم له مخيلته الجبّارة رغائبه فتعظم بحكم الحال فشله ويتناهى به طموحه و طمعه إلى حدود لا تنال فتتنكّر له الأحوال و يبقى من دونها كاسفاً، مقيداً، ساخطاً، عاجزاً عن تحقيق المآرب.

8. جاء شعر أمل دنقل صدى لما عاناه في حياته، وما عانته هذه الأمة من انكسارات وما حققتة من انتصارات.

9. كانت قصيدته صدى لصرخة الشعوب المظلومة، ونقلاً حياً مباشراً لأهات المعذبين وأنين المتعبين.

10. عاش فقيراً، ومات معدماً، لم يكسب شيئاً مادياً.. لكنه وجد نفسه الحقيقية.

إن تراثنا الشعري تراث ثري يحتاج إلى عدة دراسات في كل جوانبه تستكنه ما به من رؤى فنية، وتقنيات وظفها الشعراء القدماء والمحدثون في قصائدهم، كما أرى أن الشعر العربي كله في حاجة إلى دراسة جزئياته دراسة مفصلة، لذا وجب الاهتمام به من قبل الباحثين والدارسين للنقد لجلاء ما به من قيم فنية ورؤى فكرية وإنسانية.

المراجع والمصادر

أولاً: الكتب والمؤلفات

- الجنوبي، عبلة الرويني، دار سعاد الصباح، القاهرة، 1992م.
- الأعمال الكاملة، أمل دنقل، ديوان العهد الآتي، قصيدة "صلاة"، دار الشروق، طبعة 2 سنة 2012م
- الأعمال الكاملة، أمل دنقل، ديوان: "تعليق على ما حدث"، قصيدة "حكاية المدينة الفضية".
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، شرح سمير جابر ورفيقه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1992م.
- الشاعر الطموح، علي الجارم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2011م.
- الشعر الجاهلي وأثره في تغيير الواقع (قراءة في اتجاهات الشعر المعارض) د. علي سليمان، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 2000م.
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف. دار المعارف، مصر، 1959م.
- الصعلكة في الشعر المصري الحديث، عاطف بهجت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 2003 م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، لبنان، 1981م.
- الغربة في الشعر الجاهلي. عبد الرزاق الخشروم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982م.

- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات) شوقي ضيف، دار المعارف، مصر.
- ديوان طرفة بن العبد من الوافر، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ، 2003م.
- ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت يعقوب بن إسحاق، حققه وأشرف على طبعه، ووضع فهارسه عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ط1، 1966م.
- ديوان عنتر بن شداد، طبعة رابعة برخصة مجلس معارف ولاية بيروت الجليلة، بنفقة خليل الخوري، صاحب المكتبة الجامعة.
- شعراء قتلهم شعرهم، سمير مصطفى فراج، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، 1997.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.
- مقدمة الأعمال الكاملة للشاعر: أمل دنقل، د. عبد العزيز المقالح، مكتبة مدبولي، ط3، 1407هـ، 1987م.
- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، حسين عطوان، دار المعارف، مصر، 1970م.

ثانيا: الدوريات وشبكة الإنترنت:

- سيرة المتنبي، سلمان هادي طعمة، مجلة المورد العراقية، المجلد السادس، العدد الثالث، وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1977م.
- وميض تغتاله العتمة، د. خيرى حسن، مقال على شبكة الإنترنت.